المحاضرة السّابعة: العجائبية في السّرد العربي المعاصر

أ-في مفهوم العجائب:

وردت لفظة(عجيب) في المعاجم العربية بمعنى "إنكار ما يرد عليك لقلة اعتياده[1]، أو بمعنى"النّظر إلى شيء غير مألوف ولا معتاد"[2] ويكون التّعجب "ممّا خفي سببه ولم يعلم"[3]،واللّفظة بهذه الدّلالة تحيل إلى القطيعة مع المألوف، والابتعاد عما هو مقبول عقلا أو مُستساغ منطقا.

وبعد أن أدرج المصطلح في حقله الوظيفي الأدبي/ النّقدي تشارك في دلالته مع العديد من المصطلحات العربية الأخرى القريبة من دلالته، والتي سعى موظّفوها إلى فرضها بديلا، كلّ من منظوره وبحجته المغايرة، أهمها: الفنتازيا، الفنتاستيك، الغرائبي السّحري، الاستيهامي ... وهي المصطلحات التي تشترك جميعا في الإحالة إلى اللامألوف والخارق.

لقد أشار النّقاد إلى أنّ مشكلة الاصطلاح هذه نابعة من عدم إيجاد بديل لفظي لمصطلح (Fantastique/ Fantastic) على النّحو الذي هو مضبوط فيه دلالةً على مستوى القاموس النّقدي الغربي، ولذلك أجمع جلّهم(النقاد)- بعد الكثير من الاجتهادات الاصطلاحية- على أنّ لفظة "العجائبي" هي الأنسب للمقابلة المفهومية، وذلك تأسيسا على ما تحمله اللّفظة من دلالات معجمية عربية سابقة عن الاستخدام الاصطلاحي كالرّوعة والاندهاش والخيال والوهم والخارق، وهو ما تفتقد إليه أو إلى بعضه بقية المصطلحات.

أمّا من النّاحية الاصطلاحية فيوصفه (تودوروف)" وهو من أصحاب السّبق التّنظيري في تحديد دلالة المصطلح والإشارة إلى تمظهراته وجمالياته من خلال كتابه (مدخل إلى الأدب العجائبي) الصّادر عام 1970م (مبقول جامعٍ نهلت منه كلّ التّعريفات اللّاحقة: إنّه الأدب الذي يخلق التّردّد الذي يصيب المتلقي الذي لا يعرف غير القوانين الطّبيعية، ويجد نفسه أمام وضع فوق طبيعي حسب الظّاهر.

1- ابن منظور، لسان العرب، المجلد8 :مادة (عجب). ص 580.

2-محمد مرتضى الزّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تح: عبدالكريم العزباوي، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ط2، 1987م ،مجلد3 :مادة (عجب). ص: 319.

3- المرجع نفسه والصفحة90 .

فعندما نجد أنفسنا أمام ظاهرة غريبة يمكننا تفسيرها إمّا من خلال المسبّبات الطّبيعية أو فوق الطّبيعية لكن التّردد بين هذه المسبّبات هو الذي يخلق هذا التأثير العجائبي1[1]وهو ما يكفل القول بأنّ العجائبي قائم على صهر ما هو واقعي مع ما هو خيالي، في حالة تجاوز لما درج عليه الإنسان من مقتضيات سببية، وذلك بتوظيف المحّول والمحّور والمشّوه جنبا إلى جنب مع الحقيقي والمعقول، وهو ما يدفع المتلقي إلى العجب والحيرة من فنية اللقاء بين العالمين المتناقضين، ويكسر آفاق التوقع المنطقي ويولّد بالمقابل الاستغراب من الخوارق والخروج عن المعتاد، هذا دون أن يسمح لنا العجائبي بالحكم على أنّه خطأ أو كذب أو تضليل لأنّ انتفاء السّببيّة أو تعليق المنطق أمام حادثة لا يكفل أبدا تكذيب خبر وقوعها -مثل المعجزات- لأنّ العجائبي ذو "طابع احتمالي[(2)]".

ومن ضمن الشّروط التي تكفل شعرية النّص السّردي العجائبي -بنيةً ودلالةً- على النّحو الذي أشار إليها "تودوروف" إرباك التّشخيص التقليدي(الواقعي) في علاقة السّارد بمتلقي النّص، وذلك عندما يجبر النّص متلقيه على اعتبار عالم الشّخوص عالم أشخاص أحياء، ويجبره أيضا على التّردّد بين التّفسير الطّبيعي للأحداث والتّفسير الخارق للطّبيعة، فيشكّك المتلقي في صحّة ما يتلقاه، ولكنّه في الوقت نفسه يظلّ غير قادر على تفسيره".[(3)]

ب- صور العجائبي في النّص الأدبي

الكتابة السّردية العجائبية الحديثة والمعاصرة هي فعل يهدف إلى استجلاء المهّمش، والكشف عن المسكوت عنه، وتجاوز المطروح، وإعادة الاعتبار للمُقصى رقابيا بفعل القوانين والمحرمات، فيؤتى بالعجائبي في ظل هذه الأهداف للتعبير به بطريقة رمزية عن واقع لا يمكن بحسب المبدع تشخيصه إلا بعد تجريده وتقديمه للقارئ في حلّة عجائبية. ومن أهم هذه الروافد التي يستقي منها المبدع مادته العجائبية أذكر:

•الخرافة• .الصوفي• .الكرامات والمعجزات •المنامات. • الأسطورة. • أدب الخيال العلمي.

---

[1]- المرجع السّابق. ص 344.

[2]- -تزفتان تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبي، تر: الصّديق بوعلام، دار الكلام، الرّباط-المغرب،ط1، 1993،ص 254.

[3]- المرجع نفسه. ص52 وما بعدها.

يجب على النّص المتشّرب للعجائبي فتح خارقه على التّأويل، بناء على خصوصية كلّ رافد من الرّوافد الآنفة الذكر، " لكي يتسنّى للقارئ في صدامه الباطني مع المألوف وغير المألوف - الطّبيعي وغير الطّبيعي- تأسيس علاقة جدلية مع المقروء من جهة ومع النّصوص الخلفية المغذية لهما (النّص والقارئ[1] "وبذلك فقط يمكن القول بفاعلية استنطاق النص العجائبي والقدرة على كشف وظيفيته وشعريته.

إنّ العجائبي بصيغ توظيفه المختلفة وآثاره قريب "من الذّاكرة المتعالية التي تبتدع صورا يستحيل إيجاد مثيل لها في الواقع، من حيث التّجسيد والمواصفات، كما هو قريب من الذّاكرة العمودية لمتخيّل التي تنطلق من الواقع نحو التّأكيد المفارقة وإبراز المتناقض وكأنّ الحكاية العجائبية ليست غير نمو عضوي لانطباع معين[2]، وهي بذلك تجمع بين مسارين؛ الأوّل يستدعي فضاء التجربة الأسطوري والفلكلوري الثّقافي (...) لقراءة الواقع من خلاله، والثّاني يأخذ مسارا آخر ينطلق من الواقع ويتّجه نحو المتخيّل والمحتمل والمتوقع.

ج- السّرد العربي المعاصر وتشكلات العجائبي

لقد عرف السّرد العربي العجيب والخارق منذ بواكيره النّصية النّاضجة الأولى، وذلك من خلال قصص "ألف ليلة وليلة" وما تحمله من خوارق، ونصّ "كليلة ودمنة"، وبعض السّير الشّعبية، كسيرة سيف بن ذي يزن، وسيرة الزير سالم، وسيرة عنترة بن شداد وغيرها من النصوص التي تحتفي بها الخزانة السردية العربية. وبالنظر إلى سرودنا العربية الحديثة والمعاصرة نلحظ أنّ العجائبي أصبح سمة نصية مألوفة، إذ بعد أن كان علامة على بعض النصوص العربية القديمة، أصبح علامة حداثية جامعة بين عوالم الإبداع السردي وعالمنا الحقيقي المشحون بالتوتر، الباحث عن وسائل جديدة للتعبير عنه، فمن بدايات القرن العشرين "بدأ هذا الأدب (العجائبي) يتفرد ويخرج من كونه عنصرا مساعدا على التخييل ليصير "قاعدة وليس استثناء"، وكانت بداية ظهور هذا التوّجه في الأدب نوعا من تعميق

---

[1]- محمد سالم محمد الأمين الطّلبة، مستويات اللّغة في السّرد العربي المعاصر. ص 248.

[2]- شعيب حليفي، شعرية الرّواية الفانتاستيكية، المجلس الأعلى للثّقافة، القاهرة – مصر، ط1. 1977م،ص23.

الرمز بهدف تمرير الانتقادات السياسية والاجتماعية والدينية...[1]وبذلك نجد أنّ النّصوص السّردية العربية الحديثة والمعاصرة -في مقدمتها الرواية]حاولت التعبير بالعجائبي لا عنه، ولعلّ سياقات إنتاجها تكفل لنا الحقّ بالقول إنّ استخدامه أصبح ضرورة فكريّة وثقافيّة معاصرة، خاصة إذا واشجنا بين جانبه الوظيفي التّعبيري وبين ما يلحق النّص من جماليات فنّية إثر توظيفه.

وتجدر الإشارة في هذا السّياق إلى أنّ النص السردي العربي الحديث والمعاصر لم ينفك في توظيفه للعجائبي عن الكتابات العالمية التي تقوم بذلك، ولم يخرج عن الأطر العامة التي تميز هذا النوع من الكتابة، إذ عاد النص العربي إلى الروافد العجائبية ذاتها (الأسطوري/ المعجزات/ السحر والشعوذة/ الخيال العلمي ...)، واحتفى بها نصيا في أطر كبرى مشابهة نذكر منها: -

-أنسنة الجماد واستنطاقه- أنسنة الحيوان / استحضار الحيوان بشاكلة خرافية. / خلخلة الصّورة البشرية بالمسخ والتّحول. /إقحام الغائب في التعبير عن الواقع (عوالم الجن والآلهة / حضور الأسطورة) / إعطاء الأمكنة أبعادا غير أبعادها الحقيقية/ الانتقال عبر الزّمن/ النّفاذ في عوالم الرّوحانيات (الصّوفي/ السّحر).

إنّ هذه الاختيارات التّعبيرية وغيرها تدمج النّص السّردي العربي في خانة العجائبي العالمي إلا أنّ الفرادة تصنع عربيا من خلال تفاصيل الموظّف وآليات اشتغاله داخل العمل السردي، وهو ما يكسب الخطاب سمات دلالية وجمالية خاصة.

ومن ضمن النّصوص السّردية العربية التي تضمّن دلالات الخارق والعجيب، وهي نصوص رائدة في مجالها وصالحة للتّطبيق والتّدليل على مستوى الرّواية والقصّة القصيرة فهما الأكثر تشربا للعجائبي) نذكر: الرّواية :الطاهر وطار: (الحوات والقصر)و(يعود إلى مقامه الزكي) و(محمد ساري (الغيث) - سليم بركات (فقهاء الظلام(الحبيب السائح (زهوة)- إدوارد الخراط (رامه والتنين يحي القيسي (أبناء السماء) - الطيب صالح (بندر شاه)، (عرس الزين)- جمال الغيطاني (كتاب التّجليات) - يحي حقي (السّلحفاة تطير) صنع الله إبراهيم (اللجنة) .

---

[1]- محمد سالم محمد الأمين الطّلبة، مستويات اللّغة في السّرد العربي المعاصر. ص 247.